واقع الجامعة الجزائرية في تعليم اللغة العربية: تحدي الإعداد المعرفي ورهان تكوين النخب

د.حسين دحو

الملخص:

لقد جعلت هرمية العملية التعليمية بمختلف أطوارها؛ مسؤولية إعداد كفاءات وكفايات المجتمع التي تستجيب للتغيّرات الطارئة تكنولوجيا واقتصاديا، من المهام الجسيمة التي يتحمّل عبئها التعليم العالي، لتفرض عليه اتباع استراتيجية ناجعة وفعّالة في تكوين الكفاءات البشرية، مبنية على أساس علمي ومستمدّة من الواقع المعيش لكل دولة، كفيل بتحقيق المكانة المنشودة بفرض الوجود العلمي الراقي والتحصيل والإنتاج السوسيو اقتصادي.

سعت الجامعة الجزائرية كغيرها منذ الاستقلال، لتطوير واقع التعليم العالي بها، بإحداث إصلاحات متوالية منذ ١٩٧١ إلى استجلاب نظام L.M.D، رغم هذا، لم تستطع القضاء على الظواهر السلبية المحيطة بالعملية التعليمية في أقسام اللغة العربية في أرقى مستوياتها، التي من أهمّها: عدم قدرة مؤسساتها المتوفّرة على استيعاب الأعداد المتزايدة من الطلبة الذين ينهون مرحلة التعليم الثانوي، ما تسبّب في القصور عن التوجيه الصحيح لهم، وانعدام التوازن بين حملة الشهادات العليا ومتطلبات الاقتصاد والتنمية في الوطن، إضافة إلى التدهور السريع الذي يلحق الهياكل البيداغوجية المهيأة لاستقبال الطلبة طيلة سنوات التدرج وما بعد التدرج، مع ضعف مستوى الوعي لدى الطالب.

في البدء.... إنها اللغة العربية

لسنا اليوم في حاجة عظيمة للبحث في مفهوم اللغة العربية أو محاولة ذكر محاسنها ومفاضلتها بغيرها من اللغات، ذلك أن هذا الفعل؛أصبح من نافلة القول ومكروره المعجوج والمنافي للروح العلمية الباحثة عن الحقيقة المعرفية، لأن هذا الحديث مما فاضت به الدراسات المشتغلة والعاكفة على اللغة العربية منذ نزول القرآن بها والبحث في مواطن إعجازه، ولن نضيف اليوم إلى هذه الجهد والبحوث العالية والرصينة أكثر مما جاء فيها مفصلا في خصائص اللغة العربية وقدرتها على حمل وتحميل المعارف إن نظريا أو منجزا عمليا.

ويكفي اللغة العربية شرفا؛ أن نزلت بها خير رسالات ربي وخاتمتها إلى العالمين بريادة وسيادة سيد الأولين والآخرين محمد صل الله عليه وسلم، ثم هي لغة الفائزين بالجنة في الدار الآخرة الناظرين إلى وجه ربهم ذا الجلال والإكرام. أو مثل هذه اللغة يطالها العجز وتوصف بالخذلان والقصور؟ مثل هذه اللغة قاصرة عن حمل علوم ومعارف البشر؟ ولكنها حملت رسالة ربها ومعجزة نبيها التي حار أصحاب العقول في سر نظمها وإعجازها ووقفوا مشدوهين حائرين أمام معارف القرآن وما يحويه من أسرار العلوم والتكنولوجيات الحديثة، هذا القرآن الذي يهدي للتي هي أقوم، يتدارسه العالم المشرك فينظر في آياته ليهتدي إلى طريق ربه ويخر راكعا مسلما ومؤمنا بوحدانية الله تعالى وربوبيته. أو اللغة العربية التي هي مفتاح نطق الشهادتين وإعلان الإسلام والتوبة إلى الله، قاصرة عاجزة؟ أم أن قصور أهلها وتخاذلهم عن تدارس كتاب ربهم؛ وعجزهم عن مساندة هذه اللغة بالتفكير والبحث العلمي هو الذي دعاهم للتنكر للغة القرآن ونعتها بأبشع الصفات؟ ووهنهم عن القيام بها لغة تسود العلوم وتدحض الجهل وتحمل لواء المعرفة؟ وقد عبّر عن ذلك شاعر العروبة حافظ إبراهيم قائلا:١

وَلَدتُ ولمّا لَم أَجِدْ لعَرائِسِي * رِجالًا وأَكْفاءً وَأَدتُ بَناتِي (٦)
وسِعتُ كِتابَ اللهِ لَفظًا وغايةً * وما ضِقتُ عن آيٍ به وعِظاتِ
فكيف أَضِيقُ اليومَ عن وَصفِ آلَةٍ * وتَنسِيقِ أسماءٍ لمُختَرَعاتِ

إن اللغة العربية؛ اليوم، ليست في حاجة إلى فعل تنظيري ينظر في نحوها وقواعدها أو يقوم بدعاوى باطلة مغرضة هدفها إفساد منظومة اللغة العربية من خلال دعوة تيسيرها،فاللغة العربية الآن أحوج ما تكون إلى أن تتحول لغة للتفكير والإنتاج العلمي الرصين الذي يؤهل الأمة الإسلامية لسيادة العالم والمعرفة. فغياب المنجز الفعلي القاضي بترسيخ اللغة العربية لغة للبحوث العلمية الرائقة في الدول الإسلامية والعربية،هذا الغياب، شجع ضعاف النفوس من الكسالى والمتقاعسين وأمدهم بالقوة لمساندة الحملات الغربية الشرسة الرامية منذ أمد بعيد إلى كسر شوكة اللغة العربية ومن ثم كسر شوكة الدين الإسلامي، إذ أصبح الفرد الناشىء المتعلم وغير المتعلم من غير المتمدرسين يقبل بنهم كبير على اللغات الأجنبية دون التفاتة حانية منه إلى اللغة العربية، لاعتقاده برجعيتها وتخلفها وعجزها عن مجاراة الركب العمي المتطور، ولست ممن ينكر تعلم اللغات المختلفة بل والحذق فيها، ولكن قبل ذلك الأولى بالفرد المسلم الناشئ المتعلم أن يبرع في لغته ولغة معتقده وصلاته ومناجاة ربه ومن ثم كان لزاما عليه أن ينظر إلى اللغات الأخرى بعين الجد والاجتهاد لا تعظيما لها ولكن طلبا لعلومها ولمعرفتها لأن الحكمة والعلم ضالة المؤمن والمسلم أينما وجدهما فهو أحق بهما وبطلبهما خدمة لدينه ولأمته ووطنه ونفسه.

ولعلي، أرد عل كل متحذلق حاقد ـ من أبناء جلدتنا قبل غيره ـ على اللغة العربية بما قاله أحد المدافعين عنها من أبنائها قائلا: « ما هي اللغة؟ إنها أداة، وسيلة، وقيمة الأداة أو الوسيلة من قيمة مستعمليها.... عندما كان ابن سينا يكتب مؤلفاته في الطب لم يخلق لغة جديدة،... عندما كان الفارابي يؤلف مقطوعاته الموسيقية لم يستعمل هو الآخر لغة جديدة، استعمل لغة عنترة، لكن الاثنين أثريا هذه اللغة، لأنهما كان يتحكمان بها.... وعندما يتحكم أي عالم وفي أي تخصص بلغتهن فإنه يخلق ويفرض المصطلحات التي يحتاج إليها، مع احترام عبقرية لغته في آن واحد »٢. ولأن الأقدر على التحكم باللغة هو الفرد المتعلم الذي حصّل شأوا في العلم ومرتبة رفيعة، اتجهت هذه الورقة البحثية نحو التعليم العالي باعتباره رأس العملية التعليمية والمسؤول عن إعداد الكفاءات المعرفية بشكل أمثل، ثم اعتنت بقسم اللغة العربية في إحدى جامعات الجزائر على اعتبار أن طالب قسم اللغة والأدب العربي الأجدر والأكثر تحكما وتطويعا لناصية اللغة العربية طالما يأخذ معارفه ويبني حقائقها باللغة العربية، على خلاف باقي تخصصات التعليم العالي الأخرى التي قد تتقاطع فيها اللغة العربية مع غيرها من اللغات، إن لم ينعدم وجودها كلية في بعض الأحيان مثلما يحدث في تخصص الطب في الجامعة الجزائرية خصوصا والعربية عموما.

أما توجهي نحو اللغة العربية في التعليم العالي بالبحث والدراسة عموما وفي أقسام اللغة العربية خصوصا، على ما فيه من حرج السؤال ومذلة الإجابة المخزية المفضية إلى هجر الطلاب لأقسام اللغة العربية وعزوفهم عنها واعتقادهم بهوانها، هذا التوجه ـ على قسوة واقعه ـ ضرورة ملحة وغاية مطلوبة هدفها السعي نحو تحسين بعض حال اللغة العربية وترشيد سياستها وتعديلها نحو الوجهة الصحيحة والسليمة التي تسهم في رفع مستويات طلاب اللغة العربية على وجه الخصوص، إذ « تعد أسئلة اللغة حرجة لأنها تخص مجالات عديدة، مثل سياسة التخطيط التربوي والتعليم والتفكير والثقافة والتواصل والاقتصاد والذاكرة والدين... ويحتاج تدبير هذه الأسئلة وإعداد أجوبة ملائمة لها إلى رؤية شمولية واضحة متماسكة»٣. ولأنه من الزلل الذي لا يغتفر، يقصم الجهود البحثية ويعصفها ويجعلها هباء منثورا وغثا سمينا لا ينتفع به، أن تكون لغة التعليم والبحث العلمي غير اللغة الوطنية التي تحفظ الهوية وتدفع التنمية البشرية والبحثية نحو آفاق مشرقة، ومتى ما صار ذلك، صارت البحوث المكتوبة باللغات الأجنبية بحوثا أجنبية عن الوطن لا تسعى في خدمته بالقدر الذي تخدم به هذه اللغات الغيرية، تجعلها لغات للتفكير العلمي وللبحث المعرفي في غير أوطانها فتمكّن لها السيادة والسلطة والاستيلاء على حيوية الأوطان والتحكم في أدمغتها وكفاياتها وكفاءاتها الرائدة، فمتى ما كانت « لغة التعليم والبحث العلمي والنشر الأكاديمي بغير لسان الهوية، ومدمجة بشكل